# وقائع من أوجاع امرئ القيس

**ابراهيم درغوثي**

إلى زكريّا تامر

ترك امْرؤ القيس دروعَه عند السمَوْأل وذهب إلى إسطمبول. قال سأستجير بسلطان البرّيْن وخاقان البحريْن، الملك الذي أتَتْه الخلافةُ منقادة إليْه تجرْجِرُ أذْيَالها. ولَن يخْذلني هذا الملك وستكون هديّتي له سخيّة: سأجعل من نصف مملكتي مصيفاً له ولجواريه.

في الطّريق، تنكّر في لباس راعي غنم وركب سيّارة أجرة حتّى لا يكتشفه «عيونُ» الملك الجديد الذين بثّهم في كلّ مفارق الطّرق. وحين أحسّ بالأخطار تحوم حول السيّارة اكترى ناقةً ركبها وقطع بها الفيافي والقفار، إلى أن بلغ عاصمة الخلافة العثمانية، فقصد نزلاً فاخراً تُرفرف أمام واجهته مئاتُ الأعلام. عند الباب، استقبلته ثلاثُ بنات: واحدة شقراء والثانية سمراء والأخرى بيْن بيْن. رأى في وجه السّمراء حبيبته «عُنيزة». وقف مبهوراً أمام زينتها، فقالت له إنّها في الأصل نوميديّة ولكنّها تحبّ كثيراً العرب الذين يزورون أنْزال تركيا. ولتعبّر له عن إعجابها بهم قرأتْ له نُتفاً من «قفَا نبْك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدّخُول فَحوْمل» وسألته إن كان يقصد بالمنزل نزل «الكونْتينَنْتَالْ» أو نزلَ «الأنْتَرْنَاسيونال» فقال: لا هذا ولا ذاك، وإنّما قَصدي كان نزل الـ«بَالم بيتْش». وطلب منها أن تُعطي علَفاً للنّاقة.

في الغد، ذهب امرؤ القيس لمقابلة ملك القُسْطنطينيّة. فوجد أمام القصر طابوراً طويلاً من المترقّبين. أراد أن يتخطّاهم، فزجرَهُ حارسٌ وطلب منه أن يقف مع الواقفين. قال إنّه أمير، وإنّه لا يجوز له الوقوف مع الرّعاع، فقال الحارس: سيّدي أنتَ في بلد ديموقراطي، لا فرق فيه بين عبْد وأمير. فكّر امرؤ القيس في سيفه وفي تأديب هذا الرّجل، لكنّه أرجأ الأمر قائلاً إنّه غريب وإنّ هذا الحارس سيندم حين يعرف من هُوَ. ووقف مع الواقفين إلى أن انتصف النّهار ولم يصل دوره، فطلب منهم عونُ الأمن مُغادرةَ المكان والعودة في يوْم آخر.

رجع الشاعر إلى النّزل وأعْطى لصرّاف البنك خمس ليرات ذهبيّة فأبدَلها له بليرَات تركية ودولارات أمريكيّة، وذهب إلى غرفته. استحمّ وطلب غداءه بواسطة الهاتف الرّاقد بجانب سريره. جاءته مضيفةٌ بالغداء إلى سريره وسألته إن كان يُريد أشياء أخرى. سألها إن كانت تعرف قَيْنَة ابن الرّومي، فقالتْ له إنّها أُختها، وبدأت تغنّي، فأطربه صوتها وطلب منها أن تغنّي له بعض الألحان التي وضعها الأخوان «رحباني» وغنّتها «فيروز». فغنّت لفيروز فأجادت، فطلب منها أن تعود بعد القيْلولة. قالت: «حاضر أفندم» وخرجتْ.

ونام كما لم ينمْ من قبل.

وفي الغد، ذهب مبكراً قبل آذان الفجر. ركب سيّارة «تاكسي» وقصد قصر الحكومة. وكالعادة كان الطّابور طويلاً. وقال إنّه أمير، وقال له الحارس: «هنا في القسطنطينيّة لا فرق عندنا بين أمير وغفير». فوقف مع الواقفين، وطردهم البوليس عند منتصف النّهار.

في اليوم الثالث، لم ينم. سمع نشرة الأخبار المسائية. سمع المذيع يحكي عن عاصفة وصحراء وفرسان تُحشد وصواريخ وقنابل نووية وأمم متّحدة وقبائل مُضَر وعدنان وقحطان ولم يفهم شيئاً. قال هذا أمر لا يعنيني، وذهب إلى القصر. وجد الطّابور كما في الأيّام الخالية فأعطى رشوةً للشرطيّ المكلّف بالحراسة والنّظام فوعده خيراً. قال له: عُد في الغد على راحتك.

ذهب امرؤ القيس إلى النّزل، سهر في «الديْسكُوتكْ»، وراقص القيْنَة أختَ صاحبة ابن الرّومي، وشرب «الويسكي» و«الرّيكار»، إلى أن طلع النّهار.

حين وصل في الغد أمام قصر الحكومة استقبله الشرطي هاشّاً باشّاً، وطلب من الحاجب أن يُدخله على مولانا السلطان. ومن باب إلى باب ومن حاجب إلى حاجب وصل امرؤ القيس إلى قاعة اجتماعات حكومة مولانا القيصر. وقف «يُوسْتَانيوس» إجلالاً للأمير العربي وسأله عن أبيه وعن أحوال مملكة «كندة»، فقال له: «أبي أعطاك عُمره وأحوال المملكة من سيّئ إلى أسوأ». وحكى له كيف جاءه النّعيُ وهو في مجلس شراب، فقال: «اليوم خمر وغداً أمر». وها هو الغد قد وصل وها هو يعرض أمره.

قال: «سيّدي! إنّما جئتُ طامعاً في معونة لأستعيد عرشَ أجدادي، ولك منّي حين أستردّه نصف منتوج الأرض من القمح والشّعير ونصف غلال التّفاح والرّمان والتّين والزيتون والأنَاناس واللّيمون والموز والخوخ والكُمثْرى، وما حَوَت الأرضُ في باطنها من الذّهب والحديد والرّصاص والبترول والغاز الطّبيعي، وألف ألف دينار من الذّهب الخالص، وألف ناقة وألف جمل وألف عبد وألف أمَة، وسأدفع أجور الجند بالدّولار الأمريكي».

لم يردَّ قيصرُ إسطمبول في الحين، وإنّما طلب مشورةَ مجلس الوزراء الذي سيُعقد بعد أسبوع، مباشرةً بعد صلاة الجمعة. قال للأمير العربي: «هي الدّيموقراطية يا أخي، فأنا لا أستطيع الإفتاء في شيء قبل مشورة المجلس وإقرار النوّاب لتلك الفتوى ثم صدورها في الرّائد الرسميّ لدولتنا الموقّرة». وسأله عن مقرّ إقامته فقال: نزل «الميريدْيَان». فهزّ الأمبراطور رأسه هزّاً خفيفاً وقال لحاجبه: «اعتَنِ بالضّيف العربي! لعلّ اللّه يجعلها غَمامة!».

حين خرج امرؤ القيس، طلب السلطانُ مشورةَ وزير الميمنة الذي لا يبخل في العادة على مولاه بالنّصح فقال: «سيّدي! كما

تعرف، حالنا هذه الأيام في سوء، ودولتُنَا في حرب مع الفُرْس، وهجماتُ حزب العمّال الكردستاني تكاثرتْ ولم يفلّ مع الثوّار الحصارُ والتجويع. أرى سيّدي أن تماطل هذا الأمير حتّى ترى فيه رأيك».

وطلب رأيَ وزير الميْسرة، فدافع بقوّة عن إعطاء المعونة للأمير حتّى يستردّ عرشَ أجداده وحتّى يكون عوناً لمولانا السلطان في ذلك الجزء من الأرض، ولاسيّما بعد اكتشافِ البترول في صحرائه.

ودعا السلطان مجلسَ النوّاب للتّصويت على اقتراح إرسال قوّة مع امرئ القيس، فتعادل الفريقان، ولم يحسم السلطان الأمر لأنّه ككلّ سلاطين الدّنيا ديموقراطيّ بطبعه. وتمّ تأجيل البت في الموضوع إلى جلسة قادمة، هذا ما قاله السلطان، «حتى يختمر الموضوع أكثر في أذهانكم».

ومرّت الأسابيع تترى، ولم يحسم مجلس الوزراء أمره. كان فريق الصقور وفريق الحمائم يتعادلان في كلّ مرّة، إلى أن ضجر السلطان فطلب مشورةَ درويش بَاشا كاهنِ الأمبراطورية، الذي طلب منه أسبوعاً للتفكير والبحث عن أصوب السّبل حتّى يبرّ السلطان بوعده للأمير العربي إذْ قال له أوّل يوم التقاه: «لعلّ اللّه يجعلها غمامة».

سأل درويش باشا أعوانَه عن امرئ القيس فذهبوا يبْحثون عنه. ظنّوا أنّه سيُسلّي نفسه بزيارة المتاحف وقاعات العُروض الخاصّة باللّوحات الفنيّة والمسارح والمواقع الأثريّة وقاعات السينما. فبحثوا عنه في تلك الأماكن، فما وَجَدُوا له أثراً.

ثم قالوا لأنفسهم ربّما ذهب في زيارة للمدن الدّاخلية في المملكة، فترقبوا عودته. ولكنّه لم يعد، ذهبوا إلى كلّ مكان يخطر في ظنّهم على بال أمير ولكن كان ظنّهم في كلّ مرّة يخيب.

وحين يئسوا من العثور عليه قال لهم المفتّشُ المتربّصُ درويش أفندي: «عندي فكرة! لماذا لا نزور الكازينوهات وبيوت اللّيل والحانات وقاعات الرّقص؟».

ردّوا بصوت واحد: «فكرة صائبة! كيف غابت عنّا كلّ هذه المدّة؟». وفي غمضة عين تدرّج درويش أفندي إلى رتبة درويش باي، وتَمّ تكليفُه بالبحث عن الملك الضّلّيل.

زار درويش باي تلك الليلة كلّ الأنزال الفاخرة. وجاس في قاعات الرّقص. بحث بعينيْه اللتين لا تكلاّن عن امرئ القيس، فوجده يراقص القينة أختَ صاحبة ابن الرّومي. كانا يرقصان على أنغام «الرّوك أنْد رول». تريّث حتّى عاد الهدوء إلى المرقص وذهب الشاعر إلى طاولته المنصوبة في ركن قصيّ من القاعة فحيّاه قائلاً: «سيّدي الأمير! أريدك في حاجة أكيدة فأنا مبعوث مولانا السلطان!».

قال امرؤ القيس: «السلطان! أيّ سلطان؟».

قال درويش باي: «سلطان البرّيْن وخاقان البحريْن، مولانا المعظّم صاحب القسطنطينيّة».

قال امرؤ القيس: «وماذا يريد منّي؟».

ردّ الدرويش: «يُريدك في أمر يخصّ مملكة كِنْدة».

قال امرؤ القيس: «قل له لقد طويتُ صفْحاً عن ذلك الموضوع». ثم تدارك وهو يضحك ويرفس الأرض برجليه: «قلْ للسّلطان أن يُنَصّبني ملكاً على حانات إسطمبول».

وأصابت البهتة درويش باي.

وعادت الموسيقى إلى العزف، فقام الأمير إلى الرّقص تتْبعه القينةُ الرّاقصة.

ولم يقل وداعاً لدرويش باي!

## الهوامش

**الهامش الأوّل:**

... ولمّا تولّى عرشَ السّاسانيين كسرى أنو شرْوَان بن قُباذ سنة ٥٣١ م أرجع إلى اللّخْميّين نفوذَهم وأعاد المنذر إلى عرش الحيرة. ففرّ الحارثُ الكنديّ هارباً بذويه، فطارده المنذر حتّى قتله وجعل يدسّ الدّسائس لأولاده، فقُتل سلمة وشُرحبيل، وتنكّر بنو أسد لحجر والد شاعرنا، وأمسكوا عن دفع الإتاوَة له، فحاربهم وأعمل في رقَابهم السّيف وحبس أشرافهم، حتّى شفع فيهم شاعرهم عبيد بنُ الأبرص فعفا عنهم، ولكنّهم عادوا إلى التمرّد حتّى قتلوه. فانقرضت بموته دولةٌ نشطت إلى مناظرة الحيرَة وإلى منازعتها البقاء. وهبّ امرؤ القيس بن حجر يحاول دعم ذلك العرش المنهار واسترجاع جانب من ميراثه الضّائع، فأخفقت مساعيه. [من كتاب **تاريخ الأدب العربي**، لحنّا الفاخوري].

**الهامش الثاني:**

مات امرؤ القيس بسكتة دماغية. كان يعبّ من قارورة «ويسكي» حين أحسّ بصداع شديد. أمسك رأسه بيديه وجلس على الأرض. مات وهو يردّد: «ضيّعني أبي صغيراً وحمّلني دمه كبيراً». ثم أسلم الرّوح فدُفن في مقابر الغرباء خارج أسوار مدينة إسطمبول. وقبرُه معروف، يزوره السيّاحُ العرب في هذه الأيّام.

– وماذا عن: «أجارتنا إنّ المَزارَ قريب...».

– تلك حكاية من وضع حمّاد الرّاوية، نَسَجَ الخيالُ الشعبيُّ حولها أساطيرَ كانت تُرْوى للملوك والأمراء للعِبْرَة. وقد أنكرها النقّاد.

**الهامش الثالث:**

ذهب الرّجل الذي نصّب نفسه ملكاً على كندة بعد مقتل حجر والد شاعرنا إلى السموْأل، وطلب منه أنْ يردّ له الدّروع والسّيوف والخيول التي تركها عنده امرؤ القيس قبل ذهابه إلى القسطنطينيّة. فامتنع السموْأل في حصنه، ورفض ردّ الدّروع إلى الملك الجديد. وصادف أن كان ولده خارج الحصن، فأسره الجندُ وهدّد الملكُ بقتله إن لم يُعْطَ الدّروع.

ولكنّ السموْأل أصرّ على رأيه مضحّياً بابنه.

قال له الملك: إنّ امرأ القيس مات في حانة، ولن ينفعك في شيْء، وهذا ولدك بين يديّ، فماذا تراك صانعٌ بالدّروع بعد قتله؟

قال السّموْأل إنّه عاهد الشاعر، وإنّه لن يخلف وعده، وإنّ التّاريخ سيُخلّد ذكره، وسيُضربُ المثلُ بوفائه.

وهمّ الملك بذبح الولد، ساعتها أطلّت امرأةٌ من أعلى أبراج السور قائلة إنّها زوجة السموْأل، وطلبَتْ مفاوضة ملك كندة. ذهب كبيرُ المفاوضين إلى داخل الحصن، فأعطته الدروعَ، وطلبت منه أن يُطلقَ سراحَ الغلام على أنْ يُذْبح في الغد تحت السّور عبدٌ ويدّعي الملك أنّه ذبح ابن السّموْأل فيُخْدَعُ التّاريخ ويحتفظ زوجُها بمروءَته.

وقد انْطَلَتِ الخديعةُ على التّاريخ

**أم العرائس – قفصة (تونس)**